

المبحث الثاني دفع دعوى ظنية الآحاد عن أحاديث «الصَّحَّاحِينَ»

فأما الجواب عَمَّنْ نفى إفادة ما في «الصَّحَّاحِينَ» للعلم من المعاصرين،
فِيْمَهَّدَ للجوابِ عنه بالتَّنبِيه على ثلاثة مطالب:

المَطْلَب الأوَّل

الاختلاف في ما يفيدُه خبرُ الواحدِ

على ثلاثةِ أطرافٍ والصَّوابِ في ذلك

اختلف النَّاسُ في ما يفيدُه خبرُ الواحدِ على ثلاثةِ أطرافٍ:
طرفٌ من أهل الكلام ونحوهم: ممَّن هو بعيدٌ عن معرفة الحديث وأهله،
لا يُميِّز بين الصحيح والضَّعيف، فيشكُّ في صحَّة أحاديث، أو في القطع بها، مع
كونها معلومةً مقطوعاً بها عند أهل العلم به، فيحكم على الكلِّ بالظنِّ ما عدا
المتواتر^(١).

فهؤلاء تأثَّر النَّووي في ردِّه على ابن الصَّلاح.
وطرف آخر: ممَّن يدَّعي اتِّباعَ الحديث والعمل به: كلُّما وجد لفظاً في
حديثٍ قد رواه ثقة، أو رأى حديثاً بإسنادٍ ظاهره الصَّحة: يريد أن يجعل ذلك من
جنس ما جَرَم أهل العلم بصحَّته، حتى إذا عارضَ الصحيح المعروف، أخذَ
يتكلَّف له التَّأويلات الباردة، أو يجعله دليلاً له في مسائل العلم، مع أنَّ أثمةَ
الحديثِ يعرفون أنَّ مثل هذا غلط^(٢).

(١) انظر «المعتمد» لأبي الحسين البصري (٩٢/٢).

(٢) انظر هذا التقسيم في «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣٥٣/١٣).

ويلاحظ في وصف ابن تيمية لهذا الطَّرف الثَّاني أنَّه لم ينسب إليه القول باعتقاد القطع بكلِّ آحاد رواه
الثقة، وإنَّما وصفهم بسوء استعمالهم لهذه الآحاد وتجاوزهم للحُدَّ المعقول فيها لفرط جهلهم بمنزلتها =

وَالصَّوَابُ فِي هَذَا مَذْهَبُ جَمْهُورِ الْعُلَمَاءِ بِالْحَدِيثِ وَالْأَصُولِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَهُوَ الْمَوَافِقُ لِلشَّرْعِ وَالْعَقْلِ: أَنَّ خَيْرَ الْوَاحِدِ الثَّقَّةَ إِذَا كَانَ خَالِيًا مِنْ أَيِّ قَرِينَةٍ جَابِرَةٍ لِحَتْمَالِ الْعَلَلِ فِيهِ، بَقِيَ عَلَى أَصْلِهِ الصَّحِيحُ مُفِيدًا لِلظَّنِّ مِنْ حَيْثُ هُوَ، قَبْلَ انْضِمَامِ الْقَرَائِنِ الْمُقَوِّةِ إِلَيْهِ^(١)؛ كَتَلْقَائِهِ مِنْ قَبْلِ الْأَمَّةِ بِالْقَبُولِ، وَاسْتِفَاضَتِهِ، أَوْ تَسْلُسِلِهِ بِالْأَثْمَةِ الْحَفَاطِ الْفَقَهَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْقَرَائِنِ، قَدَرًا مَا يَكْفِي النَّظَرَ فِيهَا لِلتَّسْلِيمِ بِكَوْنِهِ صَادِرًا عَنِ الْمُخْبِرِ بِهِ، فَيَرْتَقِي الْحَدِيثُ إِلَى مُرْتَبَةِ الْعِلْمِ بِهِ^(٢).

هذه القرائن، وإن كان المازري^(٣) (ت ٥٣٦هـ) لا يراها مما يُشار إليها بعبارة

= السُّتَحَقَّةُ، وإلا فلا أحد من العقلاء يقول ذلك.

ومن هنا يظهر غلط عدد من الأصوليين في نسبة القول بإفادة الحديث الواحد للقطع إلى الحنابلة وأهل الظاهر، ونيزهم فوق ذلك بـ«الحشوة» لأجل ذلك، كما تراه عند الجويني في «البرهان» (١/٢٣١) -غفر الله له-، وهذا ناتج عن توهمه من بعض عبارات المحدثين، أنهم يحكمون للأحاد بالعلم اكتفاءً بظاهر الإسناد، دون التدقيق في باطن عِلْمِهَا والنظر في مُعَارَضَاتِ ذَلِكَ. هذا فضلاً عن غلط علي أحمد نسبة هذا القول إليه! كما تراه عند الأمدّي في «الإحكام» (٢/٣٢)، ويبيّن أبو يعلى في «العدة» (٣/٩٠٠-٩٠١) أَنَّ إِمَامَهُ أَحْمَدَ إِنَّمَا يَقُولُ بِالْعِلْمِ إِذَا كَانَ الْحَدِيثُ قَدْ تَلَقَّى بِالْقَبُولِ، أَوْ احْتَفَّ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ مَا يَفِيدُهُ ذَلِكَ.

وقد أغلظ ابن القيم القول في هؤلاء الأصوليين لأجل هذه النسبة المغلوطة، حتّى قال: «كذب بعض الأصوليين كذباً صريحاً لم يقله أحد قط»، فقال: مذهب أحمد في إحدى الروايتين عنه أَنَّ خَيْرَ الْوَاحِدِ يَفِيدُ الْعِلْمَ مِنْ غَيْرِ قَرِينَةٍ، وَهُوَ مُظَرَّدٌ عَنْهُمْ فِي كُلِّ خَيْرٍ... فَيَا لِلَّهِ الْعَجَبِ! كَيْفَ لَا يَسْتَحِي الْعَاقِلُ مِنَ الْمَجَاهِرَةِ بِالْكَذِبِ عَلَى أَثْمَةِ الْإِسْلَامِ! لَكُنْ عَذْرُ هَذَا وَأَمَثَالُهُ أَنَّهُمْ يَسْتَجِيزُونَ نَقْلَ الْمَذَاهِبِ عَنِ النَّاسِ بِإِلَازِمِ أَقْوَالِهِمْ، وَيَجْعَلُونَ لِأَزْمِ الْمَذْهَبِ فِي اصْطِلَاحِهِمْ مَذْهَبًا؛ انظر «مختصر الصواعق المرسلة» (ص/٦١٥).

(١) «النكت الوفية» للبقاعي (١/١٧٦).

(٢) انظر «الفتية والمتفقه» (١/٢٧٨)، و«نهاية السؤل شرح منهاج الوصول» (ص/٢٥٧-٢٥٨)، و«المختصر لابن الحاجب - بشرح الأصفهانى» (١/٦٤٥)، و«روضة الناظر» (١/٢٦٠-٢٦٣)، و«الإحكام» للأمدّي (٢/٣٢)، و«مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٣/٣٥١)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (ص/٤٥٦-٤٥٩)، و«إرشاد الفحول» (ص/١٣٨).

(٣) «إيضاح المحصول» للمازري (ص/٤٣٤).

تَضْبِطُهَا^(١)، فَيُمْكِنُ أَنْ يُقَارَبَ تَعْرِيفُهَا بِأَنْ يُقَالَ: «هِيَ مَا لَا يَبْقَى مَعَهَا احْتِمَالٌ، وَتَسْكُنُ النَّفْسُ عِنْدَهَا، مِثْلَ سَكُونِهَا إِلَى الْخَيْرِ الْمُتَوَاتِرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ»^(٢).

وَمِمَّا يَحَقُّ أَنْ خَبَرَ الْوَاحِدَ الْوَاجِبَ قَبُولُهُ يُوجِبُ الْعِلْمَ: قِيَامُ الْحِجَّةِ الْقَوِيَّةِ عَلَى جَوَازِ نَسْخِهِ لِلْمَقْطُوعِ بِهِ، فَمَشْهُورٌ رَجُوعُ أَهْلِ قَبَاءٍ عَنِ الْقِبْلَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْلَمُونَهَا ضَرُورَةً مِنْ دِينِ الرَّسُولِ ﷺ بِخَبَرِ وَاحِدٍ، وَكَذَلِكَ إِرَاقَةُ الْخَمْرِ وَنَحْوُ كَذَلِكَ، «فَإِذَا قِيلَ: الْخَبَرُ هُنَاكَ أَفَادَهُمُ الْعِلْمَ بِقَرَأْنٍ احْتَقَتْ بِهِ، قِيلَ: فَقَدْ سَلِمْتُمُ الْمَسْأَلَةَ، فَإِنَّ التَّزَاعُ لَيْسَ فِي مُجَرَّدِ خَبَرِ الْوَاحِدِ، بَلْ فِي أَنَّهُ قَدْ يُفِيدُ الْعِلْمَ»^(٣).

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا يُعْتَمَلُ بِهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْقُولِيَّةِ هَذَا الْمَذْهَبِ: مَا مِثْلُ بِهِ الْآمِدِّيِّ مِنْ جِهَةِ الْوَاقِعِ: أَنْ لَوْ كَانَ فِي جَوَارِ إِنْسَانٍ أَمْرَاتُهُ الْحَامِلُ، وَقَدْ انْتَهَتْ مَدَّةُ حَمْلِهَا، فَسَمِعَ الظَّلَقُ مِنْ وَرَاءِ الْجِدَارِ، وَضَجَّةُ النِّسْوَانِ حَوْلَ تِلْكَ الْحَامِلِ، ثُمَّ سَمِعَ صَرَخَ الطِّفْلِ، وَخَرَجَ نِسْوَةٌ يَقْلُنَ: إِنَّهَا قَدْ وَلَدَتْ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَرِيبُ فِي ذَلِكَ، وَيَحْصُلُ لَهُ الْعِلْمُ بِهِ قَطْعًا، وَإِنْكَارُ ذَلِكَ مِمَّا يَخْرِجُ الْمُنَاطَرَةَ إِلَى الْمَكَابِرَةِ^(٤).

وتفريعًا عن هذا التَّأْوِيلِ، نَسَأَلُ سُؤَالَ يُتَضَحُّ بِهِ الْمُرَادُ، فنقول:

هَلْ يَسْتَطِيعُ الْمُسْلِمُ الْمُتَّبِعُ أَنْ يَحْلِفَ -مِثْلًا- عَلَى حَدِيثٍ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» أَنَّهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ؟^(٥)

فإن قال: نعم؛ فهذا معنى إفادة العلم، لأنه إِنَّمَا حَلَفَ عَلَى مَا جَزَمَ بِهِ.

(١) «البحر المحيط» للزركشي (١٣٨/٦).

(٢) «المسودة في أصول الفقه» لآل تيمية (ص/٢٤٧).

(٣) «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٣٧/٢).

(٤) يقول تقي الدين ابن تيمية: «قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» هُوَ مِمَّا تَلَقَّاهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ وَلَيْسَ هُوَ فِي أَصْلِهِ مُتَوَاتِرًا، بَلْ هُوَ مِنْ غَرَائِبِ الصَّحِيحِ، لَكِنْ لَمَّا تَلَقَّوْهُ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ صَارَ مَقْطُوعًا بِصِحَّتِهِ، وَفِي السُّنَنِ أَحَادِيثُ تَلَقَّوْهَا بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ، كَقَوْلِهِ ﷺ: (لَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ)، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا تَلَقَّاهُ الْأُمَّةُ بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ بِمَوْجِبِهِ، وَهُوَ فِي السُّنَنِ لَيْسَ فِي الصَّحِيحِ».

وإن قال: لا! فهنا انغلَقَ عليه فهمُ الأصلِ الَّذي ابْتُنيت عليه مراتبِ الأخبار.

بيانُ ذلك: أنَّ «الخبرَ لا تأتيه الآفةُ إلَّا من كَذِبِ المُخبر عمداً أو من جهةِ خطئه»^(١)، فإثبات القطعيةِ أو نفيها عن الأخبار مداره على احتمال وجود تلك الآفة من عدمها، وما دام الرَّاي غير مَعصوم من هذا كُلِّه، تأتي بعض القرائن مضمومةً إلى خبره، فتُريل هذا الاحتمال من الأذهان وتُلغيه.

وما دامت قرائنُ التَّصحيح مُفيدةٌ للظنِّ عند التَّجريد في الجُملة، كإِثقانِ رُواةِ الإسنادِ وإمامتِهِم في الحديث، الَّذي حاصل في سلاسل الذهب، أو حديث مشهورٍ ذي طُرُق كثيرة مُتباعدة، سالمةٌ من أيِّ علةٍ: فإنَّ هذه القرينة -والحالة هذه- تقوم مقام خبرٍ آخر؛ ثم لا يزال التَّزايد في الظنِّ بزيادة اقترانِ القرائنِ بالخبر، أو قوَّتها في ذاتها، إلى أن يحصل العلم، حتَّى لا يَرِد عليه ما افترض من احتمال كذب الرَّاي أو غلطه.

فإذا كانت القرائن وحدها قد تفيد العلم، فإذا انضمَّ إليها ما صَحَّت نسبته برواية العدل الضَّابط عن مثله، فقامت بذلك مقام الشَّواهد: أفادت العلم من باب أولى^(٢).

وفي تقرير هذا الأصل في تقوية القرائن للأخبار، يقول الشَّاطبي: «للاجتماع من القوَّة ما ليس للافتراق، ولأجله أفاد التَّواتر القطع، وهذا نوعٌ منه، فإذا حَصَلَ من استقراء أدلَّة المسألة مجموعٌ يفيد العلم؛ فهو الدَّلِيل المَطْلُوب، وإذا تكاثرت على النَّاظِر الأدلَّة، عَضَّد بعضها بعضاً، فصارت بمجموعها مفيدةً للقطع»^(٣).

(١) «جواب الاعتراضات المصرية» لابن تيمية (ص/٣٦).

(٢) انظر «خبر الواحد وحجيته» لابن عبد الوهاب الشنقيطي (ص/١٨٣، ٢٠٢)، و«القطعية في الأدلة الأربعة» لمحمد دكوري (ص/٣٣٤).

(٣) «المواقفات» (١/٣٠).

لكن لما كان الناظر في مثل هذه الأخبار يحتاج إلى جهد في استقراء الطرق والشواهد، وأحوال الرواة والمتون، كني يطلع على تلك القرائن العائد مجملها إلى المخبر، وبعضها يرجع إلى المخبر عنه، وبعضها يرجع إلى المخبر به: كان الحكم القطعية بهذه المثابة لا يثبت لأي أحد، ولا يلزم أفراد هذا الحكم لجميع من وقف على ذات الخبر.

فلا يُستشكل -إذن- عدم إفادتها للعلم لبعض العلماء غير ذوي التخصص الحديثي، فإنما تُدرك الكليات باستقراء الجزئيات، وهذه القرائن إنما عالجها المحدثون حتى صاروا أحق بها وأهلها، فما من حديث إلا وتجد لأهل الحديث فيه حكمًا مع إحاطة واسعة بالطرق، وطبقات الرواة، ومداخل الوهم، حتى كانوا أدري الناس بلسان النبي ﷺ وحاله^(١).

وفي هؤلاء يقول ابن القيم: «..إنما يعلم ذلك: من تَضَلَّع في معرفة السُنن الصحيحة، واختلطت بلحيه ودمه، وصارَ له فيها ملكة، وصارَ له اختصاص شديد بمعرفة السُنن والآثار، ومعرفة سيرة رسول الله ﷺ، وهديه فيما يأمر به، وينهى عنه، ويُخبر عنه، ويدعو إليه، ويحبه ويكرهه، ويشرعه للأمة، بحيث كأنه مُخَالِطُ لِلرَّسُولِ ﷺ كواحدٍ من أصحابه»^(٢).

وأما من نحى خلاف هذا الأصل الذي قرَّره صوابًا من بعض علماء أهل السنة، ومن يظهر من كلامه المنع من تأثير القرائن في التصديق مطلقًا، فإن قصده نفي القطعية عن قرائن معينة لا عن كلها، أو يكون بعضهم قد استبعد تحققها من جهة الواقع، لانتفاء التجربة الدالة على ذلك في واقع الناس^(٣)، وإن كان جنس تأثيرها مُسَلِّمًا عندهم^(٤)؛ والله أعلم.

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١٨/٦٩-٧٠)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (ص/٥٦٤).

(٢) «المنار المنيف» (ص/٤٤).

(٣) قد صرح بمثله الغزالي في «المستصفى» (ص/١٠٩).

(٤) انظر «القطعية من الأدلة الأربعة» (ص/٣٣١).

المطلب الثاني

احتفاف القرائن المفيدة للعلم بجمهور أحاديث «الصّحّيحين»

بعد أن تقرّر الوجه السّابق في كونِ الآحاد يُفيد العلمَ بشرطه، ينبغي أن يُعلّم تبعاً: أنّ أحاديث «الصّحّيحين» قد احتفّ بها من القرائن ما يقطعُ النّاطر فيها بصدقيها، ففيها الأحاديث المُخرّجة بسلاسل ذهبيّة، والأحاديث المُسلسلة بحُذاقِ الحُفّاظ، والعامّة من أحاديثهما مشهور، قد رُويت من غير وجو صَحِيح^(١)، رواها هذا الصّاحِب وهذا الصّاحِب من غير أن يتواطأ، ومثل هذا يوجب العلم القطعي^(٢).

وما لم يحتفّ به شيءٌ من هذه القرائن المذكورة، فيكفيه اندراجُه في مجموع ما تلقّته الأُمّة بالقبول قرينةً للجزم به، فأَيُّ قرينةٍ افترضت، كان تلقّي الأُمّة للحديث بالقبول، أقوى منها في إيجابِ القطعِ بصحّة الخبر، حتّى عدّها كثيرٌ من الأصوليين بمنزلة المتواتر^(٣).

(١) ادعى الحاكم النيسابوري في «المدخل» (ص/١٥٤) أن ليس في الصّحّيحين شيء من الأحاديث الغرائب الأفراد، وهذا مخالف لواقع الكتّابين، وقد ردّ عليه ابن حجر في «الثّكت» (١/٣٦٨) بأن فيها «قدر ماتني حديث قد جمعهما الحافظ ضياء الدين المقدسي في جزء مفرد».

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٢/١٨).

(٣) «أحكام القرآن» لأبي بكر الجصاص (٨٣/٢)، و«البحر المحيط» للزركشي (١١٩/٦).

المَطْلَب الثالث

تَلَقِّي الأُمَّة لأَحَادِيث الصَّحِيحِينَ بِالْقَبُولِ هَرِينَةُ تَفِيدُ الْعِلْمَ

الفرع الأول: شهرة تقرير ابن الصَّلاح لتَلَقِّي الأُمَّة لأَحَادِيث الصَّحِيحِينَ بِالْقَبُولِ.

عُدَّ ابن الصَّلاح أشهر مَنْ أعلن القول بتَلَقِّي الأُمَّة للصَّحِيحِينَ بِالْقَبُولِ وفَضَّلَ القول فيه، ولم يكن ذلك منه بدعاً من الحكم، بل مسبقاً في ذلك من جهة التَّعريض والإيجاز من أصوليين ومُحَدِّثِينَ.

فبعد أن ذَكَرَ أقسامَ الصَّحِيحِ الَّذِي خَرَّجَهُ الأئمة في تصانيفهم من حيث الرُّتبة قال: «هذه أمَّهات أقسامه، وأعلاها الأول، وهو الَّذِي يقول فيه أهل الحديث كثيراً: (صحيح مُتَّفَقٌ عليه)، يُطلقون ذلك ويَعنون به اتِّفاق البخاريِّ ومسلم، لا اتِّفاق الأُمَّة عليه، لكنَّ اتِّفاق الأُمَّة عليه لازمٌ من ذلك وحاصلٌ معه، لاتِّفاق الأُمَّة على تَلَقِّي ما اتَّفَقَ عليه بِالْقَبُولِ، وهذا القسم جميعه مقطوع بصحَّته، والعلم اليَقيني النَّظريُّ واقعٌ به..»

وما انفرد به البخاريُّ أو مسلم مندرجٌ في قَبِيلِ ما يُقَطَّعُ بصحَّته، لتَلَقِّي الأُمَّة كُلِّ واحدٍ من كتابيهما بِالْقَبُولِ، على الوجه الَّذِي فَضَّلْنَاهُ من حالهما فيما سبق، سيؤيِّد أحرف يسيرة تكلم عليها بعض أهل النِّقْدِ من الحُفَاطِ، كالذَّارِقُطَنِيِّ وغيره، وهي معروفة عند أهل هذا الشَّانِ^(١).

(١) «علوم الحديث» لابن الصَّلاح (ص/ ٢٨-٢٩).

ويقول في شرحه على «صحيح مسلم»:

«ما اتَّفَق البخاريُّ ومسلم على إخراجه فهو مقطوع بصدق مَخْبَره، ثابت يقينًا، لتلقِّي الأُمَّة له بالقبول، وذلك يفيد العلمَ النَّظريَّ، وهو في إفادة العلم كالمتواتر، إلَّا أنَّ المتواتر يفيد العلمَ الصُّروريَّ، وتلقِّي الأُمَّة بالقَبول يفيد العلمَ النَّظريَّ»^(١).

فقد جعل ابن الصَّلَاح من خلال هذين النَّصَّين:

- ١- ما اتَّفَق عليه الشَّيْخَان أعلى مراتب الصَّحِيح.
 - ٢- واتِّفاق الأُمَّة نايِبٌ لاتِّفاقهما لتلقِّيها ما أخرجاه بالقبول.
 - ٣- وأنَّ التَّلَقِّي في صورته تَلَك لا يفيدُ الظَّن الرَّاجِح فحسب، بل هو مُفِيدٌ للعلم النَّظري^(٢)، سواءً ما اتَّفَقا عليه، أو ما انفرد كلُّ واحدٍ منهما به.
 - ٤- ومستنده في هذا الحكم إلى عصمة الأُمَّة من الاجتماع على خطأ.
 - ٥- ومن ثَمَّ استثنى من حكمه بالقطع أحاديثٌ يسيرةٌ منهما تكلم فيها بعض أئمة الحديث، لخروجها عن نطاق الاتِّفاق السَّابِق تقريره.
- ومُرَاد ابن الصَّلَاح بهذا التَّلَقِّي ما كان محلُّه الأحاديث التي سبقت لأضل موضوع الكتابين، أعني الأحاديث المرفوعة المُسندة، فتخرج المُعلَّقات والموقوفات، ومتون الأبواب، دون التَّراجم ونحوها؛ لأنَّ في بعض الأخبار المَسوقة فيها ما ليس من ذلك قطعًا^(٣).

(١) نقله عنه النووي في مقدمة شرحه على «صحيح مسلم» (٢٠/١).

(٢) العلم بمعناه الخاص: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، ومعنى كونه (نظريًا): أنَّه يحصل للإنسان بعد النَّظَر والاستدلال لمن له أهلية النظر، وبالتالي فرَّقه ابن الصَّلَاح عن المتواتر الذي يفيد (العلم الصُّروري) الذي يضطر الإنسان إليه دون نظر أو استدلال، انظر «التعريفات» للجرجاني (ص/١٥٥)، و«نزعة النظر» لابن حجر (ص/٤٤-٤٥).

(٣) كان يُخرج البخاري -مثلًا- حديثًا لا يُؤيَّب على جزءٍ من أجزائه، فهذا لا يكون مُفيدًا للعلم في هذا الجزء من الحديث، لأنَّ عدم تبويه له أورث فيه شبهة، والقطع كان على جهة القرائن، وهذا قرينة على خلافه، انظر «مقدمة ابن الصَّلَاح» (ص/٢٦)، وانظر مثال هذه القرينة المانعة في «فيض الباري» للكشميري (٤٢/١).

الفرع الثاني: موافقة عامة العلماء لابن الصلاح على تلقّي الأئمة لأحاديث «الصّحّيحين» بالقبول.

وافق ابن الصّلاح على حكمه العام لأحاديث الصّحّيحين كثير من أئمة الفقه والحديث قبله، أقدم ما وقفت عليه من كلامهم ممّا يُخبرون فيه بتلقّي «الصّحّيحين» بالقبول، يبدأ عائلته من القرن الخامس، أي بعد قرابة قرنين من انتشار كتابيّ الشّيخين، منهم:

أبو بكر الجوزقي (ت ٣٨٨هـ)، صاحب «المُستخرج على مسلم»^(١).
ثمّ أبو إسحاق الإسفراييني (ت ٤١٨هـ)، وقد اشتهر عنه قوله في رسالته في «أصول الفقه»: «أهل الصّنعَة مُجمعون على أنّ الأخبار التي اشتمل عليها الصّحّيحان مقطوعٌ بصحّة أصولها ومتونها»^(٢)، ولا يحصل الخلاف فيها بحال، وإنّ حصل، فذاك اختلاف في طرقها ورواتها، قال: فمن خالف حكمه خبراً منها، وليس له تأويلٌ سائغٌ للخبر، نقضنا حكمه؛ لأنّ هذه الأخبار تلقّتها الأئمة بالقبول»^(٣).

ثمّ أبو نصر السّجزيّ (ت ٤٤٤هـ)، الذي قال: «أجمَعَ أهلُ العلم الفقهاء وغيرهم، على أنّ رجلاً لو حلف بالطلاق، أنّ جميع ما في كتاب البخاريّ ممّا روي عن النبي ﷺ قد صَحَّ عنه، ورسول الله ﷺ قاله لا شكّ فيه، أنّه لا يحنّث...»^(٤).

ثمّ أبو المعالي الجويني (ت ٤٧٨هـ) في قوله: «لو حلف إنسانٌ بطلاق امرأته، أنّ ما في كتابي البخاريّ ومسلم ممّا حكّما بصحّته من قول النبي ﷺ، لمّا ألزمته الطلاق، ولا حنّثه، لإجماع علماء المسلمين على صحّتهما»^(٥).

(١) نقل ذلك عنه ابن حجر في «النتك على ابن الصّلاح» (٣٨٠/١)، ولم أقف على عبارته.

(٢) إطلاق الإسفراييني لهذا الحكم على كل حديث أخرجه الشّيخان غير صحيح، وقد خالف بعض أهل الحديث في صحّة بعض متونها كما سيأتي بيانه.

(٣) «النتك على ابن الصّلاح» لابن حجر (٣٧٧/١)، وفتح المغنيّ للسّخاوي (٧٢/١).

(٤) «مقدمة ابن الصّلاح» (ص/٢٦).

(٥) «صيانة صحيح مسلم» لابن الصّلاح (ص/٨٦).

ومحمد بن أبي نصر الحميدي (ت ٤٨٨هـ) بعد نقله لاتفاق الثقاد على صحة ما فيهما قال: «... فتبادرت النيات الموقفة على تباعدها، من الطوائف المحققة على اختلافها، إلى الاستفادة منهما، والتسليم لهما في عليهما، وتمييزهما، وقبول ما شهدا بتصحيحه فيهما»^(١).

ثم نقل ابن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧هـ) في كتابه «صفوة التصوف» لإجماع المسلمين على صحة ما أخرج فيهما^(٢).

وغير هؤلاء من أئمة الأصول والحديث ممن جاء بعدهم كثير^(٣)، حتى عد ابن تيمية قولهم هذا «مذهب أهل الحديث قاطبة»، وهو معنى ما ذكره ابن الصلاح في مدخله في «علوم الحديث»، فذكر ذلك استنباطاً، ووافق فيه هؤلاء الأئمة^(٤).

ثم وافق ابن الصلاح من بعده جلة أهل الحديث وصححو قوله، منهم ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) وهو من أخبرهم بـ «الصحيحين»، حيث قال: «والخبر المحتف بالقرائن أنواع: منها ما أخرجه الشيخان في صحيحهما مما لم يبلغ حد التواتر، فإنه احتف به قرائن، منها: جلاتهما في هذا الشأن، وتقديرهما في تمييز الصحيح على غيرهما، وتلقي العلماء لكتابيهما بالقبول، وهذا التلقي وحده أقوى في إفادة العلم من مجرد كثرة الطرق القاصرة عن التواتر»^(٥).

وقال الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ): «إعلم أن ما كان من أحاديث هذا الكتاب في أحد الصحيحين، فقد أسفر فيه صبح الصحة لكل ذي عينين، لأنه قد قطع

(١) «الجمع بين الصحيحين» (١/٧٤).

(٢) انظر «محاسن الاصطلاح» للبلقيني (ص/١٧٢، بهامش ابن الصلاح)، لكنه أغرب بعدما حين أضاف إلى مسألة التلقي والإجماع، ما كان على شرطهما وإن لم يخرجاه.

(٣) انظر «اختصار علوم الحديث» لابن كثير (ص/٣٣)، و«محاسن الاصطلاح» (ص/١٧٢)، و«فتح المغيب» (١/٧٣)، و«تدريب الراوي» (١/١٤٥).

(٤) «النكت على مقدمة ابن الصلاح» لابن حجر (١/٣٧٦).

(٥) «نزعة النظر» لابن حجر العسقلاني (ص/٥٢).

عرق النزاع ما صحَّ من الإجماع على تلقي جميع الطوائف الإسلامية لما فيهما بالقبول، وهذه رتبة فوق رتبة التصحيح عند جميع أهل العقول والمنقول، على أنهما قد جمعا في كتابيهما من أعلا أنواع الصحيح ما اقتدئ به وبرجاله من تصدئ بعدهما للتصحيح^(١).

الفرع الثالث: استثناء ما وقع بينه التعارض في أحاديث الصحيحين بلا ترجيح من إفادة العلم.

فحيث قررنا كون الصحيح من مذاهب العلماء فيما صحَّ من الآحاد أنها مفيدة للعلم حيث تنضم إليها القرائن، لا بدَّ من التنبيه على سلامة هذه الآحاد من موانع القطعية، ولأما بقيت في حيز الظن، بل قد تهوي بها تلك الموانع إلى القطع بكذبها إذا قويت آفات التخطئة^(٢).

كما قاله أبو العباس المبرد (ت ٢٥٨هـ)^(٣): «إذا صَحَّت دلائل الحق في الظن، وقامت أماراته، كان يقيناً، وإذا قامت دلائل الشك، وبطلت دلائل اليقين، كان كذباً»^(٤).

فاعتباراً لهذه الشروط السلبية مؤثرة في الحكم على آحاد ما في «الصحيحين»، نحى ابن حجر إلى استثناء ما «يقع التجاذب بين مدلوليه ممَّا وقع في الكتابين، حيث لا ترجيح، لاستحالة أن يُفيد المتناقضان العلم بصدقهما من

(١) «تحفة الذاكرين» للشوكاني (ص/٧).

(٢) اختلف الأصوليون في اعتبار بعض الموانع دون أخرى في رد الحديث أو ترك العمل به على أقل تقدير -بغض النظر عن صحة اعتبار بعضها في المنع من عدمه-، ككون الخبر مخالفاً للقياس أو القواعد العائدة مع عدم فقه روايه عند الحنفية، أو يكون الحديث مخالفاً لعمل أهل المدينة عند المالكية، أو يكون مخالفاً لعمل روايه ... إلى غير ذلك من القرائن التي قد تتأثر بها الأخبار سلباً. انظر تفصيل هذه القرائن المانعة للقطعية في «إشكالية القطع عند الأصوليين» لـ د. أيمن صالح، من «مجلة المسلم المعاصر» (ص/١٩)، العدد ١١٧، ٢٠٠٥م.

(٣) محمد بن يزيد الجوزي: إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار، مولده بالبصرة ووفاته ببغداد، من كتبه «الكامل في اللغة والأدب»، انظر «الأعلام» للزركلي (١/١٤٤).

(٤) «الأضداد» للأنباري (ص/١٦).

غير ترجيح لأحدهما على الآخر، وما عدا ذلك فالإجماع حاصلٌ على تسليم صحته^(١).

وأصل استثناء العسقلاني للمُتعارضين من أصل إفادة العلم مَبْنِيٌّ على كون التَّعارض لا يقع بين القطعيَّين، إذ القطعُ باعتبار ذاته لا يتفاوت، ونفي الاحتمال على الإطلاق شيءٌ واحد لا يتعدَّد^(٢)، إنما يقع التَّعارض والتَّفاوت في الظَّنَّيات^(٣).

وابن حجر مسبوق في هذا الاحتراز من الآمدي (ت ٦٣١هـ)، حيث قال: «لو كان حديث الثقة مُفيدًا للعلم بمجردِه، فلو أُخبر ثقةً آخرَ بضدِّ خبره، فإن قلنا: خبرُ كلِّ واحدٍ يكون مُفيدًا للعلم، لزم اجتماعُ العلم بالشيء وبنقيضه، وهو مُحال، وإن قلنا: خبرُ أحدهما يُفيد العلم دون الآخر، فلما أن يكون مُعَيَّنًا، أو غير مُعَيَّن.

فإن كان الأوَّل: فليس أحدهما أولى من الآخر، ضرورةً تساويهما في العدالة والخير.

وإن لم يكن مُعَيَّنًا: فلم يحصل العلم بخبرٍ واحدٍ منهما على التَّعيين، بل كلُّ واحدٍ منهما إذا جَرَّدنا النَّظَرَ إليه، كان خبره غير مُفيد للعلم، لجواز أن يكون المُفيد للعلم هو خبرُ الآخر^(٤).

وحيث أنَّ التَّعارض من جملة الموانع من الحكم بقطعية الحديثين، احتاج النَّاظِر إلى ترجيح أحدهما على الآخر بإحدى المَرَّجحات المتعلِّقة بالمتن أو السُّند، هذا إن عجزَ نظره عن الجمع بينهما^(٥)؛ فلما أن يقضي بعدها بإبطال

(١) «نزهة النظر» لابن حجر (ص/٥١-٥٢).

(٢) نقل غير واحد من أهل العلم أثنافًا العقلاء على ذلك، انظر «درء التعارض» لابن تيمية (٧٩/١)، و«شرح المضد على مختصر ابن الحاجب» (٢٩٨/٢).

(٣) انظر «المنقول» للفرزالي (ص/٥٣٤)، و«البحر المحيط» للزركشي (١٤٧/٨).

(٤) «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٣٣/٢).

(٥) انظر «البحر المحيط» للزركشي (١٢٥/٨).

الحديث المرجوح، لقوة الموانع من القول بصحته، فيحكم للرَّاجح بالقطعية إذا ساعدته القرائن على ذلك؛ أو يعترف بأنَّ المرجوح لا يزال دليلاً قابلاً لأن يكون صحيحاً، غاية أنه وُجد لمُقابله ما يقتضي الظنَّ بأرجحيته، فيبقى في حيز الظَّنَّات^(١).

أما إنْ عجزَ عن القدح في أيٍّ منهما بعينه، فأولى أن يَتَّقيا على أحدهما من الظَّنَّة.

وحيث أنَّ التَّرجيح فرُع عن الإقرار بالتعارض، فإنَّ الحديثين القطعيين لا يُتأتى التَّرجيح بينهما إلَّا من جهة النسخ، خاصَّةً فيما كان من القطعيتين قريباً سببه، واضحاً مأخذه، لا يحتاج إلى دقيقِ نظرٍ واستقراء؛ فهذا النوع لا يبقى معه مسلكٌ للتَّرجيح من الأساس، ولا يسوغ فيه التعارض، إلَّا كما يسوغ التعارض الظَّاهريُّ بين الآيات الكريمة أو الأخبار المتواترة، كونها ضروريةً يهجم تصديقها على النفس^(٢).

أما ما كان منها مبنياً على نظرِ المُستدلِّ في القرائن واستقراءِ الشُّواهد - كما هو الحاصل في «الصَّحَّيحين» - فيقعُ أن ينظر المستدلُّ في حديثين قد احتفَّ بهما من الشُّواهد ما يوحى بقوة الخبرين بادئ الأمر، حتَّى يلوِّح له التعارض بين مفهوميهما، ويعجزَ عن التوفيق بينهما، فيكون واقع الأمر أن أحدهما ليس قطعياً، أو لا تعارض بين مدلوليهما إلَّا في ذهن الناظر^(٣)، بحيث يمكن الجمع بين الحديثين جمعاً مقبولاً للنفس، فلا داعي للتَّرجيح حينئذٍ؛ بعكس ما لو كان الجمعُ مُتَكَلِّفاً بعيد المأخذ^(٤)، فالأشبه عندئذٍ تقديم رتبة التَّرجيح على الجمع^(٥).

(١) انظر تأصيلاً قريباً من هذا في حاشية د. الدراز على «المواقف» للشاطبي (٣٥٠-٣٤٩/٥).

(٢) انظر «القطعية في الأدلة الأربعة» (ص/٢٥٢-٢٥٣).

(٣) انظر «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (٧٩/١)، والمعنى نفسه تجده في «البحر المحيط» للزركشي (١٦٧/٨).

(٤) انظر تقرير هذا المعنى في «البحر المحيط» (١٥٢/٨).

(٥) كالحاصل من جماعة من المحذنين حين ذهبوا إلى تصحيح الروايات التي فيها أن النبي ﷺ صلَّى سُبَّ =

ولا أعلم في «الصَّحِيحِينَ» حديثًا توافقَ العلماءَ على رَدِّه بتمامه، لمعارضةِ حديث آخرَ له، مع استحالةِ التَّوفيقِ بينهما، بأيِّ وجهٍ من وجوه الجمعِ المُعتبرة: فليست أعلمُ له مثلاً صحيحاً، وأكثرُ ما يَستدعي التَّرجيحَ من أهل العلمِ في هذين الكتابين، ما كان الاختلافُ فيهما بين بعضِ ألفاظِ الثَّقَاتِ في خبرٍ صحيحٍ في أصله، وهذا واقعٌ في مسلمٍ أكثرَ منه عند البخاري^(١).

الفرع الرابع: ما استدركه ابن حجر على ابن الصَّلاح من استثناءِ ما وقع التَّعارض فيه عن إفادة العلم، من لوازمِ عبارة ابن الصَّلاح.

هذا؛ وقد ظهر لي في أمرٍ ما استدركه ابن حجر على ابن الصَّلاح من استثناءِ ما وقع التَّعارض فيه عن إفادة العلم؛ أنَّه داخلٌ بالضرورة في مفهومِ عبارة ابن الصَّلاح من حيث الأصلِ المنهجي؛ وبيان ذلك:

= وثمان ركعات في ركعتي الكسوف، فضلاً عن المعروف من صلاته لركوعين في ركعة، لورود ذلك عندهم في صحيح مسلم، حيث حملوا هذا الاختلاف في العدد على أنَّ النبي ﷺ فعلها مرَّاتٍ مع أنَّ الثَّابتَ مِن فعله ﷺ صلاته الكسوفَ مرَّةً واحدةً في عمره يوم مات ابنه إبراهيم ﷺ، ولذلك ضَعَف البخاريُّ والثَّافعي وأحمدُ غير روايةِ الرُّكُوعين في ركعة، لمخالفتها لروايةِ الجماعةِ من الثَّقَاتِ، انظر «الجواب الصحيح» لابن تيمية (٤٤٦/٢-٤٤٧).

(١) من أمثلة ذلك: ما أخرجه مسلم في (ك: الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة، رقم: ١٠٣١) من حديث أبي هريرة ؓ في السَّبعة الذين يظَّلمهم الله يوم القيامة، وفيه: «حَتَّى لَا تَعْلَمَ بَيْنَهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالَهُ»، وهي قلبُ لروايةِ الثَّقَاتِ: «حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقُ بَيْنَهُ».

وقد تكلف بعض المتأخرين الجمع بين هذه الرواية المقلوبة ورواية الجماعة من الثقات، يقول ابن حجر في «الفتح» (١٤٦/٢): «وليس بجديد، لأنَّ المخرج مُتَّحِد».

وكرواية سعيد بن منصور عند مسلم أيضاً (ك: الإيمان، باب: الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم: ٢٢٠): «ولا يَرْقُونَ» بَدَلُ «ولا يَكُونُونَ»، وقد أنكر بعض الحُفَّاظ هذه الرواية وغلطوا راويها، واعتلوا بأنَّها تعارض ما جاءت به الأحاديث الأخرى في «صحيح مسلم» نفية وغيره: من أنَّ الرَّاقِيَ قد أذن له في ذلك، وأنه يُحسن إلى الذي يرقيه، فكيف يكون هو مطلوبُ التُّرك؟! أمَّا المسترقي فأنَّه يسأل غيره ويرجو نفعه، وتأمُّ التَّوَكُّلِ المراءُ وصف السَّبعين ألفاً به ينافي ذلك.

انظر «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٨٢/١)، والمستدرك عليه (٢٧/١).

في أنَّ الواحدَ مِنَ العلماءِ إذا تعارضَ عنده حديثان، قد تَعَذَّرَ الجُمعُ بينهما بوجوهٍ مستساغٍ مقبولٍ، فلا يخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يرجَّحَ قبولَ أحدِ الحديثين على الآخر، فيكونَ رُدهُ للمرجوحِ تعليلًا له في واقع الأمر^(١).

الحالة الثانية: أن يعجزَ عن التَّرجيحِ والقَدحِ في واحدٍ منهما بعينه، فلا يحصلُ العلمُ بخبرٍ واحدٍ منهما على التَّعيين.

ومن ثَمَّ فإنَّ المرجوحَ والمتوقَّفَ فيه -في كلِّتا الحالتين السَّابقتين- يخرجان عمَّا تلقَّته الأُمَّةُ بالقَبولِ أو اتَّفَقوا على صحَّته، كونهما خارجين عن حيِّزِ الثُّبوتِ ومعنى الصَّحةِ مِنَ الأساس؛ إذ الفرضُ فيمن خلَّصَ إلي هذا الموقفِ في هاتين الحالتين أن يكونَ جُملةُ مَنْ يُعتبر قولهم في الإجماع.

كلُّ ما في عبارة ابن الصَّلَاح، أنَّه لم يُشر فيها إلى ما يُفهم منه استيعابها لمضمونِ استدراكِ ابن حجرٍ، بل قصر الاستثناءَ ممَّا لا يفيد العلمَ على ما تنازع الحفَّاظُ في حكمهم على أفرادِ الأحاديث، فأَيُّما حديثٍ بعينه لم نجد فيه كلامًا لأحدِ المُحدِّثين فالأصل أنَّه يفيد العلمَ بصحَّته عند ابن الصَّلَاح، في حين أنَّ ابن حجرَ لاحظَ في نفسِ ما لم يتكلَّم فيه الحفَّاظُ بعضَ ما يصدق عليه التَّعارضُ الَّذي ينفي عنها القطعيَّة، وقد أحسن في استثناءه ممَّا وقع الاتفاقُ على صحَّته فيفيد العلم، والله أعلم.

(١) انظر «نزعة النظر» (ص/٦٩).